

(١٦)

باب الشفاعة

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب الشفاعة).

لشئ: أي بيان ما أثبتته القرآن منها وما نفاه . وحقيقة ما دل القرآن على إثباته .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاِلَىٰ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]).

لشئ: الإنذار: هو الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها .

قوله: (به) قال ابن عباس القرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] وهم المؤمنون .

وعن الفضيل بن عياض: ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] وهم المؤمنون أصحاب العقول الواعية .

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاِلَىٰ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] قال الزجاج: موضع ليس: نصب على الحال، كأنه قال: متخلين، من كل ولي وشفيع . والعامل فيه يخافون .

قوله: ﴿لَمَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١] أي: فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]).

لشئ: وقبلها ﴿أَرَأَيْتُمْ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] وهذه كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِهُوا إِنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] فبين تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتف وممتنع .

وأن اتخاذهم شفعاء شرك، يتنزه الرب تعالى عنه . وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا إِلَهًا بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٨] فبين تعالى أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألههم . أن ذلك منهم إفك واقتراء .

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] أي هو مالكها، فليس لمن تطلب منه شيء

منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل من سواه، لأن ذلك عبادة وتأليه لا يصلح إلا لله .
قال البيضاوي ^(١) : لعله رد لما عسى أن يجيبوا به، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون .
وقوله : ﴿لَمْ يَلِكْ أَلَمْ يَلِكْ أَلَمْ يَلِكْ﴾ [الزمر: ٤٤] تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه،
لأنه مالك الملك، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن
لا يملكها ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:
٢٨:

ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه؛ إلا ليقربونا إلى الله زلفى
قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَلِكْ أَلَمْ يَلِكْ أَلَمْ يَلِكْ﴾ [الزمر: ٤٤] .
قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .
نش: قد تبين مما تقدم من الآيات أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تطلب من
غير الله .

وفي هذه الآية: بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كما قال تعالى:
﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] .
فبيّن أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين: إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع، ورضاه عن
المأذون بالشفاعة فيه، وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما
أريد به وجهه، ولقى العبد به ربه مخلصاً غير شاك في ذلك؛ كما دل على ذلك الحديث
الصحيح ^(٢) . وسأتي ذلك مقررًا أيضًا في كلام شيخ الإسلام رحمه الله .
قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ

(١) هو: عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشيرازي الشافعي، قاض وفقه أصولي، ومفسر.
قاض في تبريز يزاول الحكم من جهة، والتدريس والتأليف قبل إكمال تحصيله. ترك القضاء وتفرغ
للعلم. من مصنفاته: منهاج الوصول إلى علم الأصول، شرح المطالع في المنطق، أنوار التنزيل وأسرار
التأويل في التفسير، وشرح مصابيح السنة للبغوي. توفي سنة (٦٨٥هـ).
(٢) منها حديث أبي هريرة مرفوعاً وفيه: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير
شاك فيهما إلا دخل الجنة» أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد
دخل الجنة، حديث (٢٧)، ومنها حديث محمود بن الربيع، مرفوعاً وفيه: «... فإن الله قد حرم على
النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»، أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: المساجد
في البيوت، حديث (٤٢٥)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: الرخصة في التخلف
عن الجماعة لعذر، حديث (٣٣).

أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿النجم: ٢٦﴾ .

ثالث: قال ابن كثير رحمه الله ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْفَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿النجم: ٢٦﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٢-٢٣] .

ثالث: قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على هذه الآيات: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها. فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده.

فنفى الله سبحانه العراتب الأربع نفيا مرتبا، منتقلا من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة؛ التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه. فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا وتجريدا للتوحيد، وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحتها، وتضمنه له، يظنه في نوع وقوم قد خلوا من قبل، ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله، إن كان أولئك قد خلوا؛ فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال: ومن أنواعه أي: الشرك، طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم. وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا عما استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببا

لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا الشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك.

فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبتهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمرهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم.

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيد الله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاء إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته.

إذا سأل سؤال الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل الله. فهو لله وبالله ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وهذا الذي ذكره هذا الإمام: هو حقيقة دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

قال المحقق رحمه الله تعالى: (قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله. فلم يبق إلا الشفاعة. فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أَرَضَيْنَا﴾ [الأنبياء: ٢٨]).

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً. ثم يقال له: «ارفع رأسك وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع»^(١).

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»^(٢) فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، حديث (٣٣٤٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث (١٩٤).

(٢) تقدم تخريجه وهو صحيح.

وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود. فالشفاعة التي نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.

لش: قوله: (قال أبو العباس) هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، إمام المسلمين رحمه الله. قوله: (وقال أبو هريرة) إلى آخره. هذا الحديث رواه البخاري، والنسائي، عن أبي هريرة. ورواه أحمد، وصححه ابن حبان، وفيه «وشفاعتي لمن قال لا إله إلا الله مخلصاً، يصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه»^(١).

وشاهده في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة. فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً»^(٢).

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات، وهو كاف واف بتحقيق مع الإيجاز. والله أعلم.

وقد عرّف الإخلاص بتعريف حسن فقال: الإخلاص محبة الله وحده وإرادة وجهه. وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع. ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً، أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الولاية والملوك تنفع من والاهم.

ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله، كما قال في الفصل الأول ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

(١) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: الحرص على الحديث، حديث (٩٩)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٢٦)، حديث (٥٨٤٢) مختصراً باللفظ السابق؛ وأحد في مسنده (٣٠٧/٢)، حديث (٨٠٥٦)، والحاكم في المستدرک (١/١٤١)، حديث (٢٣٣)، هذه الزيادة.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته، حديث (١٩٩).

وفي الفصل الثاني ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيداً واتباع رسول الله ﷺ. فهذه ثلاثة فصول؛ تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ووعاها. انتهى.

وذكر أيضاً رحمه الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام؛ حتى تنتهي إليه ﷺ؛ فيقول: «أنا لها»^(١) وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء؛ ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف. وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه^(٢).

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته، قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.

والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ. وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدعوا من أنكروها، وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم، وهذه مما لم ينازع فيها أحد.

وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شافعاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاكِلٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

السادس: شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه وهذه خاصة بأبي طالب وحده^(٣).



(١) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء، حديث (٧٥١٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث (١٩٣).

(٢) تقدم تحريجه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قصة أبي طالب، حديث (٣٨٨٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، حديث (٢٠٩) عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».